الدرس الرابع والثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد:

يقول الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب التميمي في كتابه «كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد»

باب قول الله تعالى {أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ} [الأعراف:٩٩] .

وقوله : { قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ} [الحجر:٥٦] .

****

فهذه الترجمة ((**بابٌ قول الله تعالى** ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ وقوله : ﴿ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾)) عقدها المصنف رحمه الله تعالى لبيان عملين عظيمين من أعمال القلوب ، ولا تزال الأبواب عنده رحمه الله متتالية فيما يتعلق بأعمال القلوب ؛ مر معنا أولاً المحبة ثم الخوف ثم التوكل ثم هذه الترجمة في بيان عبوديتين عظيمتين من عبوديات القلب وهما الرجاء والخوف ؛ رجاء رحمة الله تبارك وتعالى ، وخوف عقابه جل وعلا .

وأتى بهما في باب واحد في هذه الترجمة فذكر أولاً قول الله عز وجل: ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾[الأعراف:٩٩] ثم ذكر قول الله عز وجل: ﴿ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ [الحجر:٥٦] ؛ فالآية الأولى في الخوف والآية الثانية في الرجاء ، والترجمة معقودة لبيان هاتين العبوديتين العظيمتين ، بل إنهما مع المحبة –وقد تقدمت في باب مستقل عند المصنف رحمه الله– تُعد أركاناً للتعبد ، لأن كل عبادةٍ يتقرب المسلم إلى الله تبارك وتعالى لابد أن تكون قائمةً على أركان ثلاثة وهي : المحبة وقد تقدمت عند المصنف رحمه الله تعالى في ترجمة مستقلة ، والرجاء والخوف وهما ما عقد له المصنف رحمه الله تعالى هذه الترجمة . فالمحبة والرجاء والخوف أركانٌ ثلاثة للتعبد ؛ بمعنى أن كل عبادة تتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بها لابد أن تكون قائمة على هذه الأركان ؛ تصلي حباً لله ورجاء لثوابه وخوفا من عقابه ، وتصوم حبًا لله ورجاءً لثوابه وخوفاً من عقابه ، وهكذا في جميع الطاعات .

وقد جمع الله عز وجل هذه الأركان الثلاثة في قوله في سورة الإسراء: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ [الإسراء:٥٧] ، فذكر جل وعلا في هذه الآية الأركان الثلاثة للتعبد .

وجُمعت هذه الأركان في فاتحة الكتاب فإن قوله سبحانه ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فيها المحبة ، وقوله ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فيها الرجاء ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ ﴾ ، وقوله ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾أي يوم الجزاء والحساب ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ [الإنفطار:١٧-١٩] فيها الخوف ؛ لأن القارئ إذا قرأ متدبراً ومتأملاً في الآية الأولى يتحرك في قلبه الحب، لأن الحمد هو الثناء مع الحب ، وإذا قرأ ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ تحرك في قلبه الرجاء؛ رجاء رحمة الله سبحانه وتعالى ، وإذا قرأ ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ تحرك في قلبه الخوف ؛ وبهذه الثلاث : المحبة في قوله ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ والرجاء في قوله ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾والخوف في قوله﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ بهذه الثلاث ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ ، فالعبودية ذكرت في سورة الفاتحة بعد أن أُرسيت أركانها ، وهذا كله يبين لنا المكانة العظيمة والمنزلة العليَّة لهذه العبوديات وهي من أعمال القلوب .

والعبد بحاجة ماسة إلى أن يكون دائماً وأبدًا جامعا بين الرجاء والخوف ؛ يحب الله سبحانه وتعالى وفي الوقت نفسه يرجو رحمة الله ويخاف عذاب الله ، ينبغي أن يكون العبد دائمًا جامعًا بين الرجاء والخوف ، وتكون فيه هاتان الخصلتان بتوازن واعتدال ،لأنه إن أعمل الخوف وأهمل الرجاء قنط من رحمة الله ، وإذا أعمل الرجاء وأهمل الخوف أمن من مكر الله سبحانه وتعالى ، وكل من القنوط من رحمة الله والأمن من مكر الله سبحانه وتعالى كل منهما من كبائر الذنوب وعظائم الآثام كما سيأتي معنا فيما ساقه المصنف رحمه الله تعالى من أدلة .

ولهذا ينبغي أن يكون العبد دائمًا وأبداً راجيًا خائفا ، جامعاً بين الرغبة والرهبة ، والدين كله قائم على الرغبة والرهبة ، ولهذا تجد آيات القرآن الكريم يُذكر فيها الترغيب والترهيب ، يذكر فيه آيات الخوف وآيات الرجاء ، ومثل ذلكم أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام ، ومن أهل العلم من أفرد ذلك بالتصنيف في الترغيب والترهيب ؛ لكثرة ما جاء من ذلكم عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، فتأتي أحاديث مرغبة كثيرة وأيضاً أحاديث مرهبة .

وينبغي على العبد أن تكون هذه حاله دائما وأبدا راجياً رحمة الله تبارك وتعالى خائفا من عذابه ؛ إن فرَّط في إحدى هاتين العبوديتين اختلت العبودية ؛ لأنه إن فرَّط في الخوف أمِن من مكر الله سبحانه وتعالى ، وإن فرَّط في الرجاء قنط من رحمة الله ، وينبغي على العبد دائما أن يكون جامعاً بين الرجاء والخوف ، ولهذا فإن هذه الترجمة

عظيمة الشأن في باب التوحيد وكتاب التوحيد ، وأهميتها بالغة فيما يتعلق بتحقيق توحيد الله عز وجل لأن التوحيد إنما يتحقق بتحقق هذه العبوديات ، وكلما عظم إيمان العبد بالله سبحانه وتعالى وعظمت معرفته بأسمائه وصفاته وأفعاله ، وأيضا المعرفة بنعمه وعطاياه وآلائه ، والمعرفة بعقوباته التي أعدها لأهل الإعراض عن طريقه ؛ إذا عظمت معرفة العبد بذلك وُجد عنه الرجاء والخوف واجتمعت فيه الرغبة والرهبة . فإذاً هذه الترجمة عظيمة الشأن فيما يتعلق بالتوحيد وتحقيقه .

قال رحمه الله تعالى ((**بابٌ قول الله تعالى ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾**)) والسياق الذي ورد فيه هذا الموضع سياقٌ يتعلق بأهل القرى الذين أعرضوا عن دين الله وعن دعوة أنبياء الله تبارك وتعالى واغتروا بما آتاهم الله سبحانه وتعالى من متَعٍ دنيوية وصحةٍ وعافية ونحو ذلك فازدادوا إعراضا ، يقول الله سبحانه وتعالى في حق هؤلاء وشأنهم: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩)﴾ أي أن الإنسان إذا كان ممتعاً بالصحة والمال والتجارة ونحو ذلك من متع الدنيا يجب عليه أن يتنبه أن هذا العطاء وهذا المن من الله سبحانه وتعالى ليس دليلاً على رضا الله عنه ولا دليلا على محبته له ، وإنما أعطاه ما أعطاه ابتلاءً وامتحاناً ، مثلما أنه يبتلي بعض العباد بالفقر فإنه يبتلي بعض العباد بالغنى والصحة والمال ونحو ذلك ، فإعطاؤه جل وعلا لبعض عباده صحةً ومالاً وتجارة وثراء وغير ذلك ليس ذلك دليل الإكرام والإنعام ، وكذلك منعه لبعض عباده من صحة أو عافية أو غنى أو نحو ذلك ليس دليلًا على أنه سبحانه وتعالى مثلاً لا يحبه أو يعاقبه بمثل ذلك ليس هذا هو المراد ، وإنما كل ذلك ابتلاء وامتحان ؛ قال الله تعالى ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾[الفجر:١٥-١٦] ماذا قال الله ؟﴿كَلَّا﴾ [الفجر:١٧] أي ليس الأمر كما يظن هؤلاء ، ليس الأمر كما يعتقد هؤلاء ، فالذي يكرمه الله ويمده بالمال والعطاء والثراء وغير ذلك ليس ذلك دليلًا على الإكرام ، وكذلك من يمنعه ليس ذلك دليلا على البغض وقصد الإهانة قال ﴿رَبِّي أَهَانَنِ﴾ ليس الغرض ذلك ، قال ﴿كَلَّا﴾ أي ليس الأمر كما يظنون؛ وإنما يعطي سبحانه وتعالى من شاء من عباده من المال والصحة ابتلاءً وامتحانا ، وأيضا يضيِّق على من شاء في ماله أو في صحته أو غير ذلك ابتلاء وامتحانا ، كلٌ منهما مبتلى ممتحن .

فإذاً هؤلاء – أهل القرى– اغتروا بالنعمة التي أعطاهم الله سبحانه وتعالى إياها وأمدهم بها فتمادوا في طغيانهم تمادوا في إعراضهم فأمنوا من مكر ربهم سبحانه وتعالى ؛ ولهذا قال ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ [الأعراف:٩٩] .

والأمن من مكر الله يكون في العبد عندما يكون في صحة وفي عافية وفي مال ولا يزال متمادياً في العصيان متماديا في الطغيان متماديا في الإعراض ، وربما أيضا قالت له نفسه أو قال له الشيطان هذه الصحة التي أوتيتها وهذا المال الذي أعطيته وهذا الثراء الذي مُنحته هذا دليل على محبة الله لك لا يزال يعطيك؛ فيتمادى والعياذ بالله في طغيانه آمناً من مكر الله سبحانه وتعالى .

﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾؛ لا يكون بهذه الصفة آمناً من مكر الله عز وجل إلا من كان من أهل الخسران والحرمان في الدنيا والآخرة ، ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ وهذا يفيد أن الأمن مكر الله خسران وحرمان من خيرات الدنيا والآخرة ، ومفهوم المخالفة لذلك: أن ضد ذلك سبيل خير العبد وفلاحه ورفعته ، عندما يكون يقظا متنبها لا تغره الدنيا ولا تفتنه مُتعها بل لا يزال محافظاً على طاعة ربه مقبلاً على أوامره سبحانه وتعالى .

قال ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ ومن المكر الذي دلت عليه الآية مكر الله بالعبد: أن يمده بالنعم وهو لا يزال متماديا في العصيان استدراجا له سبحانه وتعالى. ثم ماذا ؟ تنتهي دنياه وتنقضي حياته وهو مغترٌ بهذه المتع والدنيا التي فُتحت عليه، فيموت والعياذ بالله على الصدود والإعراض عن دين الله تبارك وتعالى فيكون من الخاسرين ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾.

الآية الثانية : قول الله سبحانه وتعالى : ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾[الحجر:٥٦] ، والقائل هو خليل الرحمن فيما ذكره الله سبحانه وتعالى عنه عندما جاءته الملائكة تبشره على كبَر سنه بغلام عليم ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦)﴾ ، مثل ذلك قول يعقوب عليه السلام لبنيه: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف:٨٧] ؛ حذَّرهم من اليأس من روح الله تبارك وتعالى.

وإبراهيم الخليل عليه صلوات الله سلامه يقول في هذا المقام العظيم كما ذكر الله عنه ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ ، لا يكون الإنسان بهذه الصفة قانطاً من رحمة الله إلا إذا ضل طريق الصواب وأخطأ الجادة السوية وانحرف عنها . ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ : إلا من ضل عن صراط الله المستقيم ؛ بمعنى أن من كان على الصراط لا يقنط من رحمة الله تبارك وتعالى .

لكن ينبغي التنبه هنا أن عدم القنوط من رحمة الله ينبغي أن يكون مصاحباً له طاعةً لله وسيراً على صراطه المستقيم، فيجمع بين الطاعة والذل والخضوع لله سبحانه وتعالى ، وفي الوقت نفسه مع اجتماع هذا الخير فيه يكون راجيا رحمة الله سبحانه وتعالى خائفا أيضا من عذاب الله عز وجل ، أما من سواه فإنه يشتط به الإنحراف إلى إحدى ناحيتين : إما قنوط من الرحمة أو أمن من المكر مكر الله تبارك وتعالى ، وكلٌ من هذين المسلكين من عظائم الذنوب وكبائر الآثام كما سيأتي في الحديث الذي ساقه المصنف رحمه الله تعالى .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الكبائر فقال : « الشرك بالله ، واليأس من روح الله ، والأمن من مكر الله » .

****

ثم ساق رحمه الله تعالى هذا الحديث حديث عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئل عن الكبائر أي سأله رجل عن الكبائر ما هي ؟ فعدَّد صلوات الله وسلامه عليه هذه الكبائر الثلاث : « الشرك بالله ، واليأس من روح الله ، والأمن من مكر الله » ، وعدُّه لها ليس على سبيل الحصر ، فالكبائر ليست ثلاثاً ولا سبعاً بل كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : إلى السبعين أقرب أو إلى السبعمائة أقرب ، الكبائر التي ذُكرت في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم كثيرة ، فهذا ليس من باب الحصر لكن تنبيهاً لهذا السائل إلى هذه الكبائر الثلاث العظيمة . ولعله عليه الصلاة والسلام في كل مرة يجيب فيها عن الكبائر يجيب السائل بما يراه متناسب مع المقام بما يراه متناسباً مع المقام أو الحال التي سئل فيها صلوات الله وسلامه عليه .

سأله رجل عن الكبائر فقال : ((**الشرك بالله**)) وهذا أكبر الكبائر وأعظمها على الإطلاق فهو أظلم الظلم وأكبر الجرم ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان:١٣] ، والشرك بالله: تسوية غير الله بالله في شيء من حقوقه سبحانه وتعالى كأن يدعو غير الله أو يستغيث بغير الله أو يذبح لغير الله أو يطلب المدد والعون من غير الله أو نحو ذلكم من العبادات ، فكل صرفٍ للعبادة لغير الله شركٌ بالله ناقل من الملة ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣] .

قال : ((**واليأس من روح الله**)) عدَّه صلوات الله وسلامه عليه من كبائر الذنوب ، واليأس من روح الله تبارك وتعالى : هو أن يبلغ الحال بقلب المسلم أو قلب الإنسان إلى أن ييأس يصاب بإياس من الرحمة ، وهذا الإياس من رحمة الله تبارك وتعالى وجوده في القلب له أسباب؛ منها أن تتراكم على العبد الذنوب وتتكاثر الآثام فيبلغ به الحال من الظن مثل هذه الجرائم بهذا الحجم وبهذا القدر وبهذه الكثرة لا مجال لغفرانها فيكون يائسا من رحمة الله تبارك وتعالى ، أو يكون على غير معرفة بالله وأسمائه ورحمته وعفوه وغفرانه وتوبته وقبوله لتوبة التائبين مهما بلغت

الذنوب ومهما كبرت الآثام فييأس من رحمة الله تبارك وتعالى . فاليأس من رحمة الله أو من روح الله جل وعلا له أسباب عديدة وأعظم ما يكون في ذلك تمادي العبد في العصيان مع الجهل بالله سبحانه وتعالى وأسمائه وصفاته ورحمته جل وعلا التي وسعت كل شيء .

قال : ((**والأمن من مكر الله تبارك وتعالى**)) والأمن من مكر الله يكون بتمادي الإنسان في المعاصي وهو في الوقت نفسه آمن من حلول عقوبة الله تبارك وتعالى به ؛ فيتمادى في عصيانه ولا تزال نعم الله عليه تتوالى وهو لا يزال أيضا في صدوده وإعراضه وإقباله على العصيان آمناً من مكر الله جل وعلا .

وكلٌ من اليأس من روح الله والأمن من مكر الله من كبائر الذنوب كما هو واضح في هذا الحديث عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : « أكبر الكبائر : الإشراك بالله ، والأمن من مكر الله ، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله » رواه عبد الرزاق .

****

ثم أورد عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : « **أكبر الكبائر : الإشراك بالله ، والأمن من مكر الله ، والقنوط من رحمة الله ، واليأس من روح الله** » فجمع رضي الله عنه الأمور الثلاثة التي اجتمعت في الحديث المتقدم حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

وذكر هنا رضي الله عنه القنوط من رحمة الله واليأس من روح الله ؛ وقد تقدم معنا في آيتين في قول إبراهيم عليه السلام ﴿ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾[الحجر:٥٦] وقول يعقوب ﴿ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾[يوسف:٨٧] ؛فالقنوط من رحمة الله هو اليأس من روح الله لكنه أشدُّه ، القنوط أشده وأعظمه ، لأن اليأس من رحمة الله تبارك وتعالى درجات ، أشدُّ ما يكون من ذلك هذه الدرجة وهي القنوط من رحمة الله تبارك وتعالى .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى : تفسير آية الأعراف .

تفسير آية الأعراف وهي قول الله عز وجل: ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف:٩٩]

الثانية : تفسير آية الحجر .

تفسير آية الحجر وهي قول الله تبارك وتعالى : ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر:٥٦]

الثالثة : شدة الوعيد فيمن أمِن مكر الله .

والوعيد تقدم ما يدل على شدته في الآية الأولى التي ساقها ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ وفي حديث ابن عباس وأثر ابن مسعود .

الرابعة : شدة الوعيد في القنوط .

وشدة الوعيد في القنوط دل عليه الآية الثانية ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر:٥٦] وأيضاً حديث ابن عباس وأثر ابن مسعود رضي الله عنهما .

نقف على كلام الإمام ابن سعدي رحمه الله :

قال رحمه الله تعالى : [**مقصود الترجمة أنه يجب على العبد أن يكون خائفاً من الله راجياً له راغباً راهبا ، إن نظر إلى ذنوبه وعدل الله وشدة عقابه خشي ربه وخافه ، وإن نظر إلى فضله العام والخاص وعفوه الشامل رجا وطمِع ، إن وُفق لطاعة رجا من ربه تمام النعمة بقبولها وخاف من ردِّها بتقصيره في حقها ، وإن ابتلي بمعصية رجا من ربه قبول توبته ومحوها ، وخشِي بسبب ضعف التوبة والالتفات للذنب أن يعاقب عليها . وعند النعم واليسار يرجو الله دوامها والزيادة منها والتوفيق لشكرها ، ويخشى بإخلاله بالشكر من سلبها ، وعند المكاره والمصائب يرجو الله دفعها وينتظر الفرج بحلِّها ، ويرجو أيضاً أن يثيبه الله عليها حين يقوم بوظيفة الصبر ، ويخشى من اجتماع المصيبتين : فوات الأجر المحبوب ، وحصول الأمر المكروه إذا لم يوفَّق للقيام بالصبر الواجب ، فالمؤمن الموحِّد في كل أحواله ملازمٌ للخوف والرجاء ؛ وهذا هو الواجب وهو النافع وبه تحصل السعادة .**

ويُخشى على العبد من خلقين رذيلين : أحدهما : أن يستولي عليه الخوف حتى يقنط من رحمة الله وروحه. الثاني : أن يتجارى به الرجاء حتى يأمن مكر الله وعقوبته . فمتى بلغت به الحال إلى هذا فقد ضيَّع واجب الخوف والرجاء اللذين هما من أكبر أصول التوحيد وواجبات الإيمان] .

هذا كلام عظيم جداً جدير حقيقةً بالتأمل حتى ندرك من خلاله المجالات التي نحتاج فيها إلى اجتماع الرجاء والخوف ، فالرجاء والخوف مصاحب للمسلم عند فعله للطاعة ؛ إذا قام بعبادة من العبادات أياً كانت ينبغي أن يجتمع فيه الرجاء والخوف ، يعبد الله وهو يرجو رحمة الله وفي الوقت نفسه يخاف عذابه سبحانه وتعالى ، إذا قُدِّر

أنه وقع في ذنب من الذنوب ينبغي أيضا أن يجتمع فيه الرجاء والخوف ، إذا أذنب لا يقنط بل عليه أن يتوب ويرجو أن يقبل الله سبحانه وتعالى توبته ، وفي الوقت نفسه عليه أن يخاف من عقوبة الذنب وسخط الله تبارك وتعالى عليه في فعله للذنوب . أيضا إذا أصيب بمصيبة وابتلي بنوع من البلاء ينبغي أيضاً أن يجمع بين الرجاء والخوف؛ بحيث يرجو أن الله سبحانه وتعالى يكشف ضره ويزيل همه وغمه ويكشف الضر الذي أصابه ، يرجو ذلك من الله حال مصابه، وأيضاً يكون في الوقت نفسه يخشى على نفسه أن تجتمع عليه مصيبة الذنب وأيضاً مصيبة عدم الرضا مثلاً بقدر الله وقضائه أو نحو ذلك . فهذا الرجاء والخوف يحتاجه المسلم في أحوال كثيرة جدا : في الطاعة يحتاجه ، في وقوعه في الذنب يحتاج إليه ، أيضا في المصيبة والابتلاء الذي يبتلى به العبد يحتاج إليه ؛ فهما عبوديتان عظيمتان يحتاج إليهما العبد في مقامات عظيمة .

ثم ينبِّه رحمه الله تعالى أن هذا المقام يُخشى على العبد فيه من خُلقين رذيلين ؛ أحدهما : أن يستولي عليه الخوف ، بمعنى أن يسيطر الخوف على قلبه حتى يصل إلى درجة القنوط من رحمة الله ، أو –وهو الخلق الثاني– أن يتمادى به الرجاء ويتجارى به الرجاء حتى يأمن من مكر الله . والسلامة من هذين الخلقين الرذيلين: الجمع بين الرجاء والخوف بتوازن وأن يكون مع المسلم في مقاماته كلها وأحوالها جميعها راجياً رحمة الله تبارك وتعالى خائفاً من عذابه.

قال رحمه الله : [**وللقنوط من رحمة الله واليأس من روحه سببان محذوران :**

أحدهما : أن يسرف العبد على نفسه ويتجرأ على المحارم فيصِرُّ عليها ويصمِّم على الإقامة على المعصية، ويقطع طمعه من رحمة الله لأجل أنه مقيمٌ على الأسباب التي تمنع الرحمة ، فلا يزال كذلك حتى يصير له هذا وصفاً وخُلقاً لازما ، وهذا غاية ما يريده الشيطان من العبد ، ومتى وصل إلى هذا الحد لم يُرجَ له خير إلا بتوبة نصوح وإقلاع قوي .

الثاني : أن يقوى خوف العبد بما جنت يداه من الجرائم ويضعف علمه بما لله من واسع الرحمة والمغفرة ، ويظن بجهله أن الله لا يغفر له ولا يرحمه ولو تاب وأناب ، وتضعف إرادته فييأس من الرحمة ، وهذا من المحاذير الضارة الناشئة من ضعف علم العبد بربه وماله من الحقوق ، ومِن ضعف النفس وعجزها ومهانتها. فلو عرف هذا ربه ولم يخلد إلى الكسل ، لعلم أن أدنى سعيٍ يوصله إلى ربه وإلى رحمته وجوده وكرمه] .

هنا يبين رحمه الله تعالى أن القنوط من رحمة الله واليأس من روحه له سببان محذوران أي يجب على العبد أن يكون في أشد الحذر منهما ، وهما يتلخصان في : جهل العبد بربه وإسرافه في ذنبه إسرافه في الذنوب ؛ جهل العبد بربه سبحانه وتعالى : أنه غفور رحيم لا يتعاظمه ذنب أن يغفره سبحانه وتعالى ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣].

يحدثني أحد الأفاضل أنه دعا شخصاً للإسلام فعدد له محاسن الدين الإسلامي فاقتنع الرجل تماماً وأدرك جمال الدين وحسنه وبهاءه وما فيه من الخيرات والعوائد الحميدة في الدنيا والآخرة ، أدرك ذلك تماماً لكن ماذا قال ؟ قال "أنا رجل مارستُ كذا وفعلتُ كذا وأخذ يعدد جرائم وذنوب وأشياء كثيرة جداً يعددها على هذا الذي يدعوه إلى الإسلام ويقول : هذه الأوصاف التي اجتمعت فيَّ لا تجعلني أهلاً لأن أكون أهل هذا الدين الذي عددتَ محاسنه أنا فعلت وفعلت" .

فأحيانا يسرف العبد على نفسه في المعاصي والذنوب وتأتيه النفس والشيطان من جهة ويقنعه أن مثل هذه الذنوب لا يمكن أن تُغفر ولا مجال فيها لنيل رحمة ، فيجتمع فيه إسرافٌ في الذنوب من جهة، وجهلٌ بعظيم غفران الله وقبوله لتوبة التائبين مهما كانت الذنوب من جهة أخرى ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣] .

من الناس من يعيش حياته كلها من أولها إلى آخرها إلا قليلاً منها على الكفر والصدود والإجرام وغير ذلك وتتداركه الرحمة ، ولهذا تجد من الناس من يتوب ويعود في أواخر عمره ، مثل ما في الحديث ((وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَدْخُلُهَا)). في هذا المجلس ولعل أكثر الإخوة يذكر أن أحد الطلاب من إحدى الدول نقل لنا بشارة في درس الوالد حفظه الله بإسلام جدته في التسعين ولم تعش بعد إسلامها إلا أياماً ، فرحمة الله سبحانه وتعالى وسعت كل شيء، ولا يجوز للعبد أن يقنط من رحمة الله وييأس من روح الله مهما كانت ذنوبه ومهما كان إسرافه في ذنبه .

وتأمل كلام الشيخ الجميل الذي ختم به هذا السياق حيث يقول : ((**فلو عرف هذا ربه ولم يخلُد إلى الكسل لعلِم أن أدنى سعيٍ يوصله إلى ربه وإلى رحمته وجوده وكرمه**)) ؛ ولهذا ينبغي على العبد الذي ابتلي بشيء من الإسراف على نفسه في الذنوب في اقتراف الخطايا في الآثام مهما كبرت ومهما عظمت أن يجتهد في التعرف على الله عز وجل بمعرفة أسمائه وصفاته وعظمته ورحمته ومغفرته يزداد معرفةً بالله ويقبل على الله ويجاهد نفسه ويتوب من ذنبه ولا يستولي عليه الشيطان بيأس يحرمه من خير الدنيا والآخرة .

قال رحمه الله : [**وللأمن من مكر الله أيضا سببان مهلكان ؛ أحدهما : إعراض العبد عن الدين وغفلته عن معرفة ربه وماله من الحقوق وتهاونه بذلك ، فلا يزال معرضاً غافلاً مقصراً عن الواجبات منهمكاً في المحرمات حتى يضمحل خوف الله من قلبه ، ولا يبقى في قلبه من الإيمان شيء ، لأن الإيمان يحمل على خوف الله وخوف عقابه الدنيوي والأخروي .**

السبب الثاني : أن يكون العبد عابداً جاهلاً معجباً بنفسه مغروراً بعمله ، فلا يزال به جهله حتى يدلَّ بعمله ويزول الخوف عنه، ويرى أن له عند الله المقامات العالية ؛ فيصير آمنا من مكر الله متكلاً على نفسه

الضعيفة المهينة ، ومن هنا يُخذل ويحال بينه وبين التوفيق إذ هو الذي جنى على نفسه . فبهذا التفصيل تعرف منافاة هذه الأمور للتوحيد] .

فيما يتعلق بالأمن من مكر الله بيَّن رحمه الله تعالى أن له سببين مهلكين :

الأول : إعراض العبد عن الدين وغفلته عن معرفة الله وما له من حقوقٍ على عباده سبحانه وتعالى ، فيكون متماديًا في التهاون والتقصير والتفريط منهمكاً في المحرمات، ويستولي عليه والحالة هذه يستولي عليه الأمن من مكر الله تبارك وتعالى ، ويغتر بما آتاه الله مثلا من صحة أو عافية أو تجارة أو نحو ذلك .

والسبب الثاني : أن يكون العبد عابداً جاهلاً معجباً بنفسه ؛ وهذا يكثر عند الطرقية من المتصوفة الذين يعبدون الله تبارك وتعالى بالجهل وبالبدع ، ويأتي ببدع يُعجب بها، إما أن يكون هو الذي اخترعها أو اخترعها له بعض أشياخه فيعجب بها ، كأن مثلا يعتني بطريقة معينة من الذكر ويرى فيها أنها يترتب عليها أجور عظيمة وثواب جزيل وغفران للذنوب مهما كانت حال الإنسان ، ولهذا بعضهم يستمسك ببعض البدع التي يزاولها فيحافظ عليها ثم يغتر ويأمن ، فتجده مثلا يفرط في الفرائض ويفرط في الواجبات، يرتكب مثلا بعض المحرمات ويكون معجباً بذلك العمل ويقول أنا مثلي ومن يقوم بمثل هذه الأعمال التي هو يمارسها وهي من البدع يظن أنها هي التي تنجيه ، فيكون معجباً بها مغترا بها ومفرطاً في طاعات الله سبحانه وتعالى وعباداته !! ويظن أن هذه البدعة التي يمارسها هي التي ينال بها الرحمة . انظر على سبيل المثال من يمارسون بدع الاحتفالات في مواسم معينة ، يمارسونها نوعاً من التقرب لله بتلك الاحتفالات وفي المقابل يضيعون فرائض الدين وواجباته ،ربما ارتكبوا حتى في نفس الاحتفالات أشياء محرمة وأعمال منكرة ، ويصاب بعجب ببدعته التي هو عليها ويغتر بذلك فيأمن من مكر الله سبحانه وتعالى. ولهذا يصف هؤلاء أنفسهم أو يصف بعضهم بعضاً بأوصاف يجزمون فيها لبعضهم بالنجاة ، بل يجزم بعضهم لبعض أشياخهم أن بيده أيضا نجاة الآخرين ، من غلو شنيع مفرط وصل إليه عدد من هؤلاء ، فهذا يدخل في هذا الباب وهو سبب من الأسباب التي توصل بعض الناس إلى الأمن من مكر الله سبحانه وتعالى.

إذاً الأول يمارس المعاصي ويأمن من مكر الله ، والثاني يمارس البدع التي تُبعد صاحبها عن الله تبارك وتعالى وأيضا يأمن من مكر الله ؛ فهذان سببان مهلكان يوصلان العبد إلى الأمن من مكر الله تبارك وتعالى .

وبهذا انتهت هذه الترجمة ، ونسأل الله عز وجل أن يوفقنا أجمعين لما يحبه ويرضاه من سديد الأقوال وصالح الأعمال ، وأن يصلح لنا شأننا كله ، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين إنه سميع قريب مجيب .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلِّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .